الفصل الثاني عشر
انسانية قائد

obeikandl.com

إنسانية قائد

لا بد لي ـ وأنا أُودِع خلاصة تجربتي خلال صفحات هذا الكتاب ـ من أن أُطْلع القارئ الكريم على أحداث ومواقف ومبادرات ثرت النموَ وانتفتُحَ وراء الستار بعيدًا عن الأضواء، والتحرُّك بتجرُّد دون دوافع أو أهداف؛ بل تداعت وانسابت بتلقائية كماء لال، إنها دفقت عطاء ثرٍّ تقاطرت من نبع لا يشحُّ نوالُه ولا ينحسر فيضه ولا ينضب معينه بإذن الله، ولا تتقطَّع حبال دلائه، عطاءٌ ذاتيٌّ محض متعلِّق بالرجاء والمثوبة من الخالق العظيم، ونقصد عطاء رجل يستمسك بحبل الله المتين، ويستنير في كل خطوه بنوره امبين، ويستمد قيمه وعزائمه من هدي رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.. رجل يتفوق على ذاته ويملك مشاعر إنسانية باتساع المعمورة، راحتاه نديَّتان على الدوام، ما قبض يده عن طالب، ولا تأفَّف أو ذَوَى وجهَه عن ذي حاجة، ومهما سرفت الأقلا، في الحديث عنه؛ فلن تبلغ شأوه، ولولا أن فطرته تأبى المدح والإطراء؛ لاستمد العالم كل مفردات المعاجم التي يمكن أن توفيه حقه؛ ولكنه لا يرضى أن يكون مقصدًا للمادحين والمقرِّظين. هو رجل لا يحتاج إلى تعريف أو إعلام، ولا يطمع في أن تُسوَّد الصفحات بالحديث عنه أو عن إنجازاته؛ لأنه استطاع أن يكتب ـ بمداد من نور ـ ملايين الصفحات والدروس في خواطر العالم، وأن ينقشها في وجدانه بصفاته الفذَّة وتواضعه الجم، وبمبادراته الإنسانية وحبِّه للخير، وحرصه على ضعفاء الأمم ومحتاجيها ومدِّ يد العون لهم أينما كانوا.

لقد كانت لهذا الإنسان مواقف نبيلة مع أطفال شاء الله أن يولدوا بعيوب خلقية شديدة التعقيد، وظروف معيشية متدنية، وفي عالم أهمل قيم الروح، وأغرق في الماديات، وبالغ في القوة والإعداد لها والاعتداد بها حتى كادت إنسانيته تنسلخ من جلدتها، عالم غارت فيه مشاعر الرحمة، ووُئِدَ العطف، وضَمُرت مساحات العون والمساعدة بين الإنسان وأخيه، وبين المجتمع والمجتمع والأمة والأمة، عالمٌ تجاوز الحدود ليصدع أكبادنا ويدمي أعيننا بمشاهد القتل والهدم والتشريد، أوطانٌ تُدمَّر، وتُنهب خيراتها، وتُسلب حرياتها، أُسَرٌ تترك نهبًا للضياع وشظف العيش، نساء يترمَّلن، أطفال يتيتَّمون وتُقْتل البراءة في وجوههم، وآخرون يعيشون بإعاقات دائمة، أو ويُجبرون على الشقاء والإذلال الذي يزهق كرامتهم ويسحق آدميتهم. لقد أصبح العالم يرزح تحت وطأة المؤامرات والكراهية والدمار ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ورغم مضخة هذه الظروف التي يعيشها العالم من حولنا؛ تسطع في سماء مملكتنا أفعال خير وبرٍّ وإنسانية لتكشف الغمة، وتعيد الأمل والضياء إلى النفوس المرهقة، وسط هذه التراكمات المريرة يرتفع اسم القائد الإنسان، والإنسان القائد عبد الله بن عبد العزيز ـ حفظه الله ـ ليترجم معانيَ مترعةً بالخير، ومفعمةً بالمحبة، ومشرقةً بروح التآخي والتآزر وخدمة الناس، يستلهم ـ أمدَّ الله في عمره ـ مواقفه ومبادراته من مبادئ وقيم ديننا الحنيف الذي يؤكد خطابُه وتعاليمه على هذه الشعارات الإنسانية الرفيعة والمخلصة دون اعتبار للون أو جنس أو طبقة، ودون انتماء لعقيدة أو مذهب أو طائفة أو جغرافيا، قال الله تعالى: ﴿.... **ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا....**﴾ المائدة ـ الآية (٣٢).

زيارة للتوأم البولندي

زيارة للتوأم السعودي الصيني

وأستأذن القارئ الكريم في أن أعرض له هنا مواقف ومبادرات خادم الحرمين الشريفين ـ وفَّقه الله ـ مع التوائم السيامية كمثال بسيط على إنسانيته؛ لأنه كان بحق ـ دون مجاملة أو ممالأة ـ وراء هذه الخبرة العلمية والإنسانية التي تحققت في بلادنا الغالية، واعتُبرتْ كذلك وسامًا يتدلَّى على صدر وطننا العربي والإسلامي؛ فقد دعمها ـ رعاه الله ـ بما أوتي من حكمة وحنكة وبُعد نظر لتكون وسيلة فعالة ومؤثرة من وسائل الدعوة، ولتعكس أنموذجًا مشرقًا للبلدان الإسلامية، مبرهنًا للعالم عبر هذه النظرة المتعمقة أن هذا الدين هو أصل الحضارة، ومنبع الدعوة الصادقة إلى نشر السلم والسلام والطمأنينة في ربوع هذه الأرض، وإلى تكريم الإنسان وصوْن كرامته وحفظ حقوقه، وهو ليس دين إرهاب ولا فتك ولا تخريب.

إذًا فأنا أرى أن الواجب يُحتِّم عليَّ ـ طالما كنا في سياق إنسانية هذا القائد ـ إبراز بعض الوقفات علَّها تكشف الجوانب المضيئة لهذه الإنسانية، ومن هذه الوقفات على سبيل المثال لا الحصر:

الوقفة الأولى: مع التوأم السعودي الثالث:

في نهايات العقد الأخير من القرن الماضي بدأت ثمار النهضة الصحية في المملكة تتكاثر، وتؤتي أكلها على مساحة واسعة الانتشار، وتتعاظم سمعتها ـ إقليميًّا وعربيًا ودوليًا بعد أن تأهل كثير من أبنائها في اختصاصات طبية دقيقة، وبفضل هذا التأهيل العالي والتدريب المستمر، وتراكم الخبرة والتجارب السابقة تشكل فريق طبي تمكَّن ـ بفضل الله ثم برعاية قيادتنا الحكيمة ـ من إجراء رابع عملية فصل لتوأم سيامي بالمملكة. ففي هذه العملية تم فصل توأم سعودي بعد أن أثبتت الفحوصات المخبرية أنهما ملتصقان بالصدر والبطن والحوض، مع وجود اشتراك بينهما في الكبد، واشتراك آخر في الأمعاء الدقيقة والقولون والجهازين البولي والتناسلي.. وفي ليلة العملية تلقيت توجيهًا من خادم الحرمين الشريفين بالاعتماد على الله سبحانه وتعالى، والدعاء قبل العملية لأنه جل وعلا لا يُخيِّب رجاء من أمَّل فيه والتجأ إليه..

وبعد أن وفقنا الله وهيأ لنا النجاح في هذه العملية؛ كان أول اتصال تلقيته من مقامه الكريم ـ حفظه الله ـ ليطمئن على حالة التوأم وسلامته، وما أن اطمأن عليهما حتى أمرني بنقل تهانيه لوالديهما ثم لزملائي أعضاء الفريق الطبي، ولم يكتف بذلك؛ بل استقبل التوأم بعد شفائهما بمكتبه مُهنئًا ومباركًا لوالديهما ومذكِّرًا لهما بوجوب شكر الله الذي أنعم على طفليهما بالصحة والعافية.. إنها إنسانية قائد عظيم.

الوقفة الثانية: مع التوأم المصري الثاني:

قبل أن يغادر التوأم المصري الثاني غرفة العناية المركزة بعد نجاح العملية الجراحية؛ قرر الرجل الإنسان زيارتهما في المستشفى من منطلق ذاتي ودافع إنساني بحت، أراد ـ حفظه الله ـ الاطمئنان بنفسه على وضعهما، وحين دخل عليهما انحنى وقبَّل يد إحداهما في حنان وعطف بالغ مثلما يُقبِّل الوالد أطفاله، وكان فرحه بشفائهما كبيرًا وباديًا على وجهه.

وأؤكد أن حرصه هذا ـ أطال الله عمره ـ كان نابعًا من قلب عطوف محبٍّ للخير، وقد سأله أحد الصحفيين المصريين في نفس

زيارة للمرضى

زيارة أبوية للمصابين

لكان عن رأيه في هذا النجاح، فجاء الردُّ سريعًا وبتلقائية: «إنه نجاح الأمة العربية والإسلامية». نعم، إنه بهذا الموقف يؤكد مرة خرى أننا أمة واحدة يجمع بينها الدين واللغة، وتؤلِّف بينها مشاعر المحبة والإخاء، وتوثق عراها وحدة الهدف والتطلع والمصير. في إجابته إشارة إلى أن نجاحَ أحدنا بشيرٌ وحافزٌ للآخر.. موقف يستحق التقدير والاحترام.

وقفة الثالثة: مع التوأم البولندي:

تتجسَّد هذه الوقفة في زيارته الكريمة ـ حفظه الله ـ للتوأم البولندي بعد يومين من نجاح عمليه فصلهما، وكانت لهذه الزيارة معان ودلالات إنسانية واجتماعية ودينية عميقة بعيدة الغور، فعندما كان واقفًا بجانب سرير إحدى الصغيرتين مدَّت يدها لتصافحه وكأنَّ لسانها حالها ينطق ويقول: شكرًا أيها الإنسان، شكرًا أيها القائد، شكرًا أيها الوالد، شكرًا شكرًا شكرًا.. لم تصُدَّك حدود الدول ولا حواجز القارات، ولم يمنعك اختلاف الأجناس أو الألوان أو اللغات أو الأديان أو الأعراف أو الجغرافيا من بسْط يدِّ العون والمساعدة لإنقاذ طفلة بريئة محتاجة قدمتْ من بلد بعيد ومدينة بعيدة يجهلها أهلوك وشعبك، وربما جهلها أهل قارتها كلهم. لم يبرح خادم الحرمين الشريفين مكانه؛ بل رفع يديه ـ بعد مصافحة الطفلة ـ إلى السماء شاكرًا ربَّه على نِعمِه وآلائه وما أكرمه به من قدرة على مساعدة المحتاجين.

إن موقفه هذا ـ أغدق الله عليه نعمه ـ يقف مثالاً حياً على خُلق الإنسان المسلم الذي حرَّك الملايين في بولندا لتتأمل في إنسانية هذا البلد وقيمه ممثلة في قائده، ولتتبيَّن هذا القدر من السماحة والخلق العظيم الذي يتميز به هذا الرجل، ولتعيد النظر في رؤيتها وتقييمها للدين الإسلامي مستشفةً نُبلَ قيمه، ومتأملة سماحته وعالميته.. لقد طبع هذا الموقف الإنساني في أذهانهم صورة مشرقة عن الإسلام وأهله بعدما شوَّهها وهدمها الإعلام الغربي، ودمغ معتنقيه بالجهل والضلال.

الوقفة الرابعة: مع التوأم العراقي

نظرة أبوية حانية كانت تبدو على وجه خادم الحرمين الشريفين وهو يطالع الطفلين العراقيين بعد نقلهما مباشرة إلى العناية المركزة، أحس والداهما بأنه يشاركهما عاطفة الأبوة بكل تداعياتها، لاحظ جميع الحضور تلك النظرة المشفقة والودودة والرحيمة المقترنة بالدعاء والضراعة إلى الله عز وجل بأن يحفظ هذا التوأم، ويكتب لهما حياة كريمة في مستقبلهما خالية من المنغصات، وأن يصبحا عضوين فاعلين ونافعين في مجتمعهما.. كان لسانه ـ رعاه الله ـ يلهج بالثناء على الله جل وعلا الذي وفَّق الفريق الطبي في أداء مهمته بنجاح، وبالدعاء الطويل إلى الصغيرين وكأنه يحاول ـ عبر هذا الدعاء ـ استنهاض مجتمعهما لتأمين حياتهما بعد أن منَّ الله عليهما بنعمة الفصل.. لقد بدا واضحًا أن مساحة اهتمامه تتجاوز حدود الوطن ولا تقتصر على السعوديين فقط؛ بل تكاد تستوعب الأمة الإسلامية قاطبة. نظرة إنسانية نبيلة أحاطت هذه الأسرة الضعيفة القادمة من ساحة حرب ضروس لا يخبو لها أوار، وكأنه ـ أمد الله في عمره ـ يواسيها ويتمنى لها أن تكون في مأمن مما يجري على الساحة العراقية.

عطف على مواطن

استماع لشكوى مواطن خير

الوقفة الخامسة: مع التوأم الكاميروني

استطاعت الأحاسيس والمشاعر الإنسانية الفياضة أن تكسر حاجز اللغة بين خادم الحرمين الشريفين ـ كلأه الله برعايته ـ ووالدي التوأم الكاميروني، كانت ابتسامته في وجه الطفلين أبلغ من كل المفردات والعبارات، وحملت معاني ومدلولات تكاد تعجز عنها كل اللغات، وشكّلت ترجمة صادقة لأحاسيس وإنسانية هذا القائد.. لقد أطل الفرح على وجهه الكريم بعد نجاح العملية واطمئنانه إلى أن التوأم سيخرج إلى الحياة من جديد بآمال وطموحات مستقلة لكل منهما، زارهما في العناية المركزة، وتحدث إلى والديهما رغم أنهما لا ينطقان إلا بلغتهما المحلية، كانت سعادته ـ حفظه الله ـ لا توصف وهو يهنئهما على نجاح العملية، فإشراق الحياة في جسد أي إنسان أو مجتمع أو أمة؛ يملأ قلبه بالفرح والسعادة، فإنسانيته غير محكومة بجغرافية أو لون أو مذهب؛ وإنما تسع الجميع في كل أنحاء الدنيا، ولعل هذا سرٌّ من أسرار استقرار بلادنا ورفاهيتها وأمنها وأمانها من البلايا والمحن والحروب. فهي بإذن الله في حفظ الله ورعايته، فمن كان في عون أخيه كان الله في عونه.

الوقفة السادسة: استقباله للتوائم وأسرهم بمزرعته:

لا يقف اهتمامه ـ حفظه الله ـ بالتوائم السيامية على مرحلة الفصل والعلاج والزيارة على أسرَّة جناح الأطفال بعد العمليات، ولا على توجيهه بمتابعة حالاتهم حتى بعد عودتهم لبلدانهم؛ بل اعتاد على استقبالهم في مزرعته الخاصة مع ذويهم، وتهنئتهم بما منَّ الله عليهم من نعمة الصحة والعافية، وإشراق الحياة في نفوسهم ونفوس آبائهم بعدما غلب عليها القلق وسيطرت عليها الكآبة والمعاناة، ويُشرِّفهم بالتقاط صور تذكارية معهم، ويقدم لهم بعض الهدايا. ويمثل ذلك أروع الصور الإنسانية التي تصوغ ذاتيته المتوهِّجة بقيم الإسلام وتعاليمه ومبادئه، كما يكشف عن تواضعه وحبِّه الشديد للأطفال.

الوقفة السابعة: زيارته لمساكن الفقراء بالرياض:

فاجأت زيارته لمنازل الفقراء بالرياض الجميع؛ إذ لم يسبقها ترتيب أو إعداد أو تنظيم أو إعلام أو إجراءات حماية، فقد قرر خادم الحرمين الشريفين زيارة أحد الأحياء الفقيرة بالرياض ليطّلع بنفسه دون وسيط على وضع هذه الفئة المهمة من المجتمع. لقد برهنت هذه الزيارة ـ التي تحدث فيها إلى المسن وأصغى إلى المرأة وداعب الطفل ـ أن عبد الله بن عبد العزيز رجل خير وإنسانية وعطف وحنان.

الوقفة الثامنة: زيارته لمرضى حمى الوادي المتصدع بمدينة جازان:

أظهرت هذه الزيارة بُعدًا آخر لإنسانية خادم الحرمين الشريفين، وكشفت أن هموم المواطن والمريض والمحتاج لا تفارقه أينما كان، وأن حاجاتهم ومتطلباتهم من أولوياته. فحين علم بمشكلة حُمَّى الوادي المتصدِّع أثناء عودته من مهمَّة رسمية في

زيارة لمساكن المحتاجين

السلام على الأطفال

أوروبا؛ أصدر توجيهًا بتغيير خط سير الطائرة من الرياض إلى جازان، وذلك دون سابق ترتيب؛ بل وبعيدًا عن الرسميات والبروتوكولات. ورغم نُصح الأطباء له - خوفًا على صحته - إلا أنه أصرَّ على مواصلة الرحلة والوقوف على حالة المتأثرين بتداعيات المرض، وفي جازان توجَّه من المطار إلى المستشفى، وزار المرضى وسلَّم عليهم رافضًا وضع الكمامات في موقف شهم ونبيل لمواساتهم ومشاركتهم مشاعر المعاناة، مُعزِّزًا بذلك مقولته الشهيرة: «إذا كان المواطن في خطر؛ فأنا مواطن مثله».. كانت بالفعل زيارة أبويَّة حانية تبعتها قرارات حاسمة لتجاوز مسببات مثل هذه المشكلات الصحية والبيئية.

هذه صور مختزلة من بين آلاف؛ بل ربما ملايين المشاهد اليومية التي ظل يرسمها خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبدالعزيز للعالم دون تكلُّف أو تصنُّع أو رياء أو مباهاة، إنها صور مشرقة ناصعة لشخصية نبيلة فذة صادقة مخلصة تستلهم مقومات سلوكها في حياتها من دين سمح محبٍّ للسلم والسلام، وتسترشد في سياساتها ومعاملاتها بإرث حضاريٍّ وإسلاميٍّ مجيد وراسخ. عبد الله بن عبد العزيز آل سعود رمزٌ من رموز الإنسانية الشامخة، ولا غرو أن توافق الجميع على تقليده لقب: (ملك الإنسانية) الذي يستحقه عن جدارة.

لمسة أبوية حانية للتوأم المصري آلاء وولاء